

الرسالة الخامسة
مَتَّى نَصْرَ اللَّهِ

[البقرة : ٢١٤]

عَبْدُ الْغَيْزِ زَيْنُ شَاصِرِ الْمُجَلِّيلِ

مَتَّى نَصْرَ اللَّهِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

لا ريب أن من أعز مقاصد المؤمنين وأشهى مطالبهم وغاية نفوسهم : رؤية دينهم ظاهراً وكتابهم مهيمناً وعلو راية التوحيد خفاقة مع قهر أهل الكفر والطغيان وإذلالهم .

إن هذا الهدف الأعظم وتلك الأمنية السامية لا تتحقق عن طريق الدعاوى والأمانى بل عن طريق البحث والتنقيب عن سنن الله في النصر ، تلك السنن الربانية التي قدرها - تبارك وتعالى - لنصر حزبه الموحدين وخذلان حزب الشيطان اللعين .

فيجب علينا معشر المؤمنين حتى نحقق صدق الدعوة ونقيم عليها البينة العادلة أن نتعرف على تلك السنن وطبيعة الصراع وحجم التكاليف وشراسة الأعداء ومباينة السبل واختلاف المناهج والغايات والتوجهات بين المؤمنين والكافرين ، حتى نقضي على فرية وحدة الأديان وتوحيد الرايات والالتقاء في الطريق تحت ستار الأسرة الواحدة والشرعية الدولية .

إن دين الله - الذي اصطفاه لنا ولا يعبد إلا به - يقتضي أن يكون - جل شأنه - حاكماً لا معقب لحكمه ، وأن يوحد بالعبادة والتلقي والتوجه وأن يفرد بالولاء ، مع الكفر والبراءة والانخلاع من كل ما يعبد من دونه .

ومن هنا وجب إعداد العدة والأخذ بالسنن الربانية لتحقيق النصر المأمول مع الحذر الشديد من العوائق الداخلية والأمراض الفتاكة التي تفتك بجسد الأمة وتسلمها فريسة سهلة لأعدائها لتحول بينها وبين غايتها العظمى ودورها المنشود المناط بها ، بل المدقق في تلك العوائق الداخلية ليتيقن أنها الأساس المنيع الذي تستمد منه العوائق الخارجية وجودها وهيمنتها .

إن الله - عز وجل - بعلمه الشامل وحكمته البالغة قدر وقضى أن يكون الصراع بين الحق والباطل موجوداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وأما عن طبيعة هذا الصراع : فسمته أنه حرب ضروس لن يخمد لهيبها إلى قيام الساعة . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ [البقرة: ٢١٧] ، ولا يخفى ما تحويه لفظة : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ ﴾ من الاستمرارية والبقاء دون انقطاع ، ولهذا جاء الأمر واضحاً من العليم الحكيم لأوليائه : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩] ، والفتنة لن تخلو منها الأرض ، بل الساعة تقوم على شر أهلها .

وكذلك أخبر النبي ﷺ بأن : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة »^(١) .

هذه السنة الربانية قد خص بها حشد من النصوص المستفيضة حتى

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٥٠)، وفي المناقب (٣٦٤٤).

بلغت حد التواتر اللفظي والمعنوي ، وغدت من المعلوم بالاضطرار من هذا الدين وأصبح المكذب بها مكذباً بالدين طاعناً على رب العالمين متبعاً غير سبيل المؤمنين .

وهذا من أبلغ الحجج والبراهين على دحض افتراءات العلمانيين والمنافقين-الذين وقفوا على طريق جهنم وأعلوا رايهم ملوحين بها للناس أن هلموا إلينا ليقذفوهم فيها- الذين يزعمون ويفترون بأن الحرب الدينية اليوم قد انتهت ، وحرى بالعالم أجمع أن يجتمع تحت راية واحدة وأن يكونوا كالجسد الواحد المتجانس الشعور والإحساس ولا تحول معتقداتهم دون هذا البتة ، بل يجب أن تبقى هذه المعتقدات حبيسة القلوب وحبيسة دور العبادة والمحارب ولا تتعدى جدرانها ولا تتخطى حدودها !!

ومن المعلوم أن الخصوم في حروبها تلجأ إلى ناصر وولي ومعين ، تحتمي بحماه وتقهر بقوته وتعتر بعزته ، فالله - جل شأنه - لم يرتض لأوليائه ناصراً سواه ولا ولياً دونه ولا معيناً عداه ، قال تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧] ، وقال سبحانه : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] .

ومن هنا وجب علينا معشر المسلمين وأمة التوحيد أن نتوكل على مولانا وناصرنا ، ونعي آثار أسمائه الحسنی وصفاته العليا ، فنتعبد لله بها وتظهر في القلوب آثارها فتطمئن لوعده الله وتثق بنصره ، حتى ولو صال الباطل وانتفش في وقت من الأوقات ، فإن المؤمن يوقن أن ما قدره الله هو الخير ويحوي في طياته الرحمة والنعمة وإن كان ظاهره الألم والمشقة ، ذلك أن رحمة الله سبحانه قد سبقت غضبه وأن الشر ليس إلى الله عز وجل .

إن معبود وولي المؤمنين هو الجبار القوي : الذي لا يعجزه شيء .
 العزيز : فلا يغلبه شيء . المتكبر : الذي تكبر عن السوء والظلم . الرحمن :
 الذي هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها . العليم : فلا يخفى عليه شيء ،
 والسر والجهر عنده سواء لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في
 الأرض . الحكيم : في أفعاله وقدره وأحكامه . القدير : فالسماوات
 مطويات بيمينه والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، ما قدره أولياؤه حق
 قدره فضلاً عن أعدائه . المحييط : بظلم الظالمين ومكر الماكرين لا يفوته شيء .
 العليّ : قد علا على كل شيء دونه وتحت قهره وغلبته .
 يقول ابن القيم رحمه الله :

«وكذلك اسمه السلام : فإنه الذي سلم من العيوب والنقائص . ووصفه
 بالسلام أبلغ في ذلك من وصفه بالسالم ، ومن موجبات وصفه بذلك
 سلامة خلقه من ظلمه لهم . فسلم سبحانه من إرادة الظلم والشر ، ومن
 التسمية به ، ومن فعله ، ومن نسبته إليه . فهو السلام من صفات النقص
 وأفعال النقص وأسماء النقص ، المسلم لخلق من الظلم . ولهذا وصف
 سبحانه ليلة القدر بأنها سلام ، والجنة بأنها دار السلام ، وتحية أهلها
 السلام . وأثنى على أوليائه بالقول السلام . كل ذلك السالم من العيوب .
 وكذلك الكبير من أسمائه ، والمتكبر .

قال قتادة وغيره : هو الذي تكبر عن السوء . وقال أيضاً : الذي تكبر
 عن السيئات . وقال مقاتل : المتعظم عن كل سوء . وقال أبو إسحق :
 الذي يكبر عن ظلم عباده . وكذلك اسمه العزيز الذي له العزة التامة . ومن
 تمام عزته براءته عن كل سوء وشر وعيب ، فإن ذلك ينافي العزة التامة .

كذلك اسمه العليّ الذي علا عن كل عيب وسوء ونقص . ومن كمال علوه أن لا يكون فوقه شيء . بل يكون فوق كل شيء .

وكذلك اسمه الحميد ، وهو الذي له الحمد كله ، فكمال حمده أن لا ينسب إليه شر ولا سوء ولا نقص لا في أسمائه ولا في أفعاله ولا في صفاته . فأسماءه الحسنی تمنع نسبة الشر والسوء والظلم إليه ، مع أنه سبحانه الخالق لكل شيء ، فهو الخالق للعباد وأفعالهم وحركاتهم وأقوالهم .

والعبد إذا فعل القبيح المنهيّ عنه كان قد فعل الشر والسوء . والرب سبحانه هو الذي جعله فاعلاً لذلك . وهذا الجعل منه عدل وحكمة وصواب ، فجعله فاعلاً خيراً ، والمفعول شر قبيح ، فهو سبحانه بهذا الجعل قد وضع الشيء موضعه لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يُحمد عليها ، فهو خير وحكمة ومصلحة ، وإن كان وقوعه من العبد عيباً ونقصاً وشرّاً وهذا أمر معقول مشاهد .

فإن الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العوجاء والحجر المكسور واللينة الناقصة فوضع ذلك في موضع يليق به ويناسبه كان ذلك منه عدلاً وصواباً يمدح به ، وإن كان في المحل عوجٌ ونقص وعيب يُذم به المحل . ومن وضع الخبائث في موضعها ومحلها اللائق بها كان ذلك منه حكمةً وعدلاً وصواباً . وإنما السفه والظلم أن يضعها في غير موضعها . فمن وضع العمامة على الرأس ، والنعل في الرجل ، والكُحل في العين ، والزبالة في الكناسة ، فقد وضع الشيء موضعه ، ولم يظلم النعل والزبالة إذ هذا محلُّهما .

ومن أسمائه سبحانه العدل والحكيم الذي لا يضع الشيء إلا في موضعه ، فهو المحسن الجواد الحكيم العدل في كل ما خلقه وفي كل ما وضعه

في محله وهياً له . وهو سبحانه له الخلق والأمر . فكما أنه في أمره لا يأمر إلا بأرجح الأمرين ، ويأمر بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وإذا تعارض أمران رجح أحسنهما وأصلحهما . وليس في الشريعة أمر يفعل إلا ووجوده للمأمور خير من عدمه ، ولا نهى عن فعل إلا وعدمه خير من وجوده ^(١) اهـ .

وقد قضى الله سبحانه وتعالى بأن البقاء للحق ؛ لأنه الأصل الذي قامت عليه السماوات والأرض وأما الباطل فهو طارئ وزاهق ، قال تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] ، وقال سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧] .

ولكن حكمة الله عز وجل البالغة اقتضت أن يوجد الباطل لاختبار أوليائه وإظهار آثار أسمائه الحسنی وصفاته العلی وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً ، وإلا لو شاء الله عز وجل لم يكن هناك كفر ولا باطل . قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ [محمد : ٤] .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والرضا بالقضاء الكوني القدری ، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته - مما لا يلائمه ، ولا يدخل تحت اختياره - مستحب . وهو من مقامات أهل الإيمان وفي وجوبه قولان ، وهذا كالمرض والفقر ، وأذى الخلق له ، والحر والبرد ، والآلام ونحو ذلك .

(١) شفاء العليل . ص ٣٨٠ .

والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره - مما يكرهه الله ويسخطه ، وينهى عنه - كأنواع الظلم والفسوق والعصيان : حرام يعاقب عليه . وهو مخالفة لربه تعالى . فإن الله لا يرضا بذلك ولا يحبه . فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه ؟ فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء .

فإن قلت : كيف يريد الله سبحانه أمراً لا يرضاه ولا يحبه ؟ وكيف يشاؤه ويكوّنه ؟ وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكراهيته ؟

قيل : هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً ، وتباينت عنده طرقهم وأقوالهم .

فاعلم أن « المراد » نوعان : مراد لنفسه ، ومراد لغيره .

فالمراد لنفسه : مطلوب محبوب لذاته ولما فيه من الخير ، فهو مرادٌ إرادة الغايات والمقاصد .

والمراد لغيره : قد لا يكون في نفسه مقصوداً للمريد ، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته . وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده . فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته ، ومراد له من حيث إفضائه وإيصاله إلى مراده . فيجتمع فيه الأمران : بغضه ، وإرادته ، ولا يتنافيان ، لاختلاف متعلقهما ، وهذا كالدواء المتناهي في الكراهية ، إذا علم تناوله أن فيه شفاء ، وكقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده ، وكقطع المسافة الشاقة جداً إذا علم أنها توصله إلى مراده ومحبوه . بل العاقل يكتفي في إشار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب ، وإن خفيت عنه عاقبته ، وطويت عنه مغبته ، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب ؟ فهو سبحانه وتعالى يكره الشيء ويبغضه في

ذاته . ولا ينافي ذلك إرادته لغيره ، وكونه سبباً إلى ما هو أحب إليه من فوته .

مثال ذلك : أنه سبحانه خلق إبليس ، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال ، والاعتقادات والإرادات ، وهو سبب شقاوة العبيد ، وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى ، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة ، فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالى ، مسخوط له ، لعنه الله ومقتته ، وغضب عليه ، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ، وجودها أحب إليه من عدمها .

* منها : أن تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات . وذلك من أدل الدلائل على كمال قدرته وعزته ، وسلطانه وملكه ، فإنه خلق هذه المتضادات ، وقابل بعضها ببعض ، وجعلها محال تصرفه وتديره وحكمته . فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته ، وكمال تصرفه وتديره مملكته .

* ومنها : ظهور آثار أسمائه القهرية ، مثل (القهار ، والمنتقم ، والعدل ، والضار ، وشديد العقاب ، وسريع الحساب ، وذو البطش الشديد ، والخافض ، والمذل) فإن هذه الأسماء والأفعال كمال . فلا بد من وجود متعلقها ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملك : لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال .

* ومنها : ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ، ومغفرته وستره ، وتجاوزه عن حقه ، وعتقه لمن شاء من عبيده . فلولا خلق ما يكره من

الأسباب المفضية إلى شهود آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله : « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم »^(١) .

* ومنها : ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة ، فإنه سبحانه « الحكيم الخبير » الذي يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها اللائقة بها ، فلا يضع الشيء في غير موضعه ، ولا ينزله غير منزلته ، التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته ، فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل ، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع ، ولا الثواب موضع العقاب ، ولا العقاب موضع الثواب ، ولا الخفض موضع الرفع ، ولا الرفع موضع الخفض ، ولا العز مكان الذل ، ولا الذل مكان العز ، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه ، ولا ينهى عما ينبغي الأمر به .

فهو أعلم حيث يجعل رسالته ، وأعلم بمن يصلح لقبولها ، ويشكره على انتهائها إليه ووصولها ، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ويستأهله ، وأحكم من أن يمنعها أهلها ، وأن يضعها عند غير أهلها .

فلو قُدرَ عدم الأسباب المكروهة البغيضة له لتعطلت هذه الآثار ، ولم تظهر لخلقه ، ولفاتت الحكم والمصالح المترتبة عليها ، وفواتها شر من حصول تلك الأسباب .

فلو عطلت تلك الأسباب - لما فيها من الشر - لتعطل الخير الذي هو أعظم

(١) رواه أحمد بن حنبل (٢٨٩/١)، وله شواهد في السلسلة الصحيحة (٩٧٠).

من الشر الذي في تلك الأسباب . وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر والضرر ، فلو قدر تعطيلها - لثلا يحصل منها ذلك الشر الجزئي - لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لانسبة بينه وبينه .

* ومنها : حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت ، ولكان الحاصل بعضها ، لا كلها . فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه ، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها : من الموالاة فيه سبحانه ، والمعاداة فيه ، والحب فيه والبغض فيه ، وبذل النفس له في محاربة عدوه ، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى ، وإيثار محاب الرب على محاب النفس .

* ومنها : عبودية التوبة ، والرجوع إليه واستغفاره ، فإنه سبحانه يحب التوابين ويحب توبتهم ، فلو عطلت الأسباب التي يتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها .

* ومنها : عبودية مخالفة عدوه ، ومراغمته في الله وإغاظته فيه ، وهي من أحب أنواع العبودية إليه ، فإنه سبحانه يحب من وليه أن يغيظ عدوه ويراغمه ويسوءه ، وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس .

* ومنها : أن يتعبد له بالاستعاذة من عدوه ، وسؤاله أن يجيره منه ، ويعصمه من كيده وأذاه .

* ومنها : أن عبيده يشتد خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حلَّ بعدوه

بمخالفته وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المرتبة الشيطانية ، فلا يُخلدون إلى غرور الأمل بعد ذلك .

* ومنها : أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته ، الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة . فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته .

* ومنها : أن نفس اتخاذه عدواً من أكبر أنواع العبودية وأجلها . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر : ٦] ، فاتخاذه عدواً أنفع شيء للعبد ، وهو محبوب للرب .

* ومنها : أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر ، والطيب والخبث ، وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد . فخلق الشيطان مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل ، وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل ، فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها ، ليترتب عليه آثاره ، وما في قوى أولئك من الشر ، ليترتب عليه آثاره ، وتظهر حكمته في الفريقين ، وينفذ حكمه فيهما ، ويظهر ما كان معلوماً له مطابقاً لعلمه السابق ^(١) اهـ .

إن التأمل اليوم في عصرنا الحاضر وما فيه من الصراعات ، يجد أن الصراع بين الحق والباطل قد بلغ أشده ، وأن ملل الكفر قد جمعت كل إمكانياتها ضد عدو واحد ألا وهو الإسلام ودعاته الصادقون الذين يصفونهم تارة بالمتطرفين وتارة بالأصوليين وتارة بالإرهابيين .

وإن المراقب للأحداث التي ظهرت في السنوات الأخيرة وبالذات

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٩٧) .

بعد أحداث الخليج ونشوء ما يسمى النظام العالمي الجديد^(١) ليلاحظ أنها

(١) النظام العالمي الجديد : هذا المصطلح - الذي يحمل في طياته الكثير من الخبث والمكر للإسلام والمسلمين - قد اصطلح عليه أئمة الكفر من اليهود والنصارى والشيوعيين لزيادة النكاية بالمسلمين والعمل الدؤوب لمنع ظهور الإسلام مسيطراً ومهيماً لأداء دوره المنشود . ومضمون هذا المصطلح : أن يكون العالم بأسره - على اختلاف ملله - تحت راية واحدة يوالي ويعادي من أجلها وتلك الارية بكل وضوح هي راية الصليب تحت ستار الأمم المتحدة - التي لم تتحد إلا على ضرب الإسلام وتمزيق أهله وإعلاء راية الكفر والطغيان - والقائمون على رأس هذا النظام من اليهود النصارى والمشركين لهم حق الحكم والقرارات والفصل في شتى المنازعات والخصومات بين كافة الدول والملل والمجتمعات دون حق التعقيب عليها من أحد ! بل على العالم أجمع الانصياع التام والعبودية الكاملة والطاعة المطلقة لتلك الطائفة الحاكمة .

وأما عن حكم هذا النظام الخبيث : فمن المعلوم بالاضطرار من الدين : أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت ، وهذا الحد متوفر في هذا النظام الخبيث لا ستباحته حق التشريع وسن القوانين والحكم بما شاء من غير تقيد أو امتثال لحدود الله سبحانه التي حدها في كتابه وسنة رسوله ﷺ وهذا هو لب العبادة وأصلها . والدليل على ذلك : حديث عدي بن حاتم - رضي الله عنه - عندما أقسم بالله للنبي ﷺ أنهم - أي أهل الكتاب - ما وقعوا في عبادة الأبحار والرهبان ، فاحتج النبي ﷺ بوجود أصل العبادة ولها ، فقال : « ألم يحلوا لكم الحرام ، ويحرموا عليكم الحلال فاتبعتموهم » قال : بلي . قال : « فتلك عبادتكم إياهم » . وقال القرآن في حقهم : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] .

فتلك الأمة عندما أنزلت أحبارها ورهبانها منزلة ربها في التحليل والتحريم والتشريع من دونه خرجت بذلك عن عبادة ربها إلى عبادة الأبحار والرهبان . فكيف بمن يتخذ أحبار ورهبان وأئمة الكفر ملّة لا يدين بها أرباباً من دون الله !!؟

أما عن كيفية الكفر والبراءة من هذا الطاغوت : فيجب على كل مسلم أن يعلن الكفر والبراءة من هذا الطاغوت والانخلاع من طاعته في شريعته امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ولا يكفي هذا حتى يعادي عبّاد هذا الطاغوت ويظهر لهم العداوة والبغضاء أبداً حتى يكفروا به ويؤمنوا بالله وحده ، قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

تتسم بسمتين رئيسيتين هما :

١- التسارع الشديد والمفاجآت التي تصحبها، إلى حد أن المتابع لهذه الأحداث لا يفتأ يسمع بحدث ويبحث عن الموقف منه إلا وتفجؤه أحداث آخر تنسيه أو تشغله عن الحدث الأول .

٢- إن أغلب هذه الأحداث - إن لم نقل كلها - تقع في المنطقة الإسلامية وأن المسلمين فيها هم المستهدفون بالدرجة الأولى .

إن هذا الصراع الذي نعيشه في الآونة الأخيرة قد رجحت فيه قوة الكفر والكافرين - لحكمة يعلمها الله عز وجل ، كما سبق أن بينا - فاستباحوا بذلك ديار المسلمين ودماءهم وأعراضهم وبلغ المسلمون من الذلة والمهانة واستخفاف أعدائهم بهم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل .

وفي ظل هذه الحملة الشرسة على ديار المسلمين ودينهم وأعراضهم صار الكثير من الدعاة إلى الله عز وجل يتساءلون مع بعضهم أو مع أنفسهم .

أما آن لهذه المهانة أن تنقشع ؟ متى ينجلي هذا الليل الطويل الذي ناء تحت كلكله كل مسلم غيور يهمة أمر هذا الدين ؟ متى يبرز فجر الإسلام ؟ وبشكل عام ظهر سؤال كبير ألا وهو ذاك السؤال الذي سألته الرسول ﷺ والذين آمنوا معه بعدما أصابتهم البأساء والضراء وزلزلوا فقالوا : متى نصر الله ؟

قال الله تعالى واصفاً هذه الحالة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

من أجل ذلك جاءت هذه الدراسة المتواضعة في محاولة للإجابة على هذا السؤال الكبير من حيث المنهج لا من حيث الموعد ، لأن الموعد قريب إن شاء الله ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ، ولكن المهم هو الطريق المؤدي إليه .
أسأله سبحانه أن يلهمنا رشدنا وأن يرزقنا السداد في القول والعمل .

* * *

• سنن الله عز وجل في النصر •

لا بد لمن يريد نصرة دين الله عز وجل والتمكين له في الأرض أن يتعرف على سنن الله تعالى في نصرة دينه ، وبدون هذه المعرفة لن يتم الاهتداء إلى الطريق ، وبالتالي ستضيع الأوقات والجهود ولما يأت نصر الله .

ومن هذه السنن ما ورد في الآيات التالية من كتاب الله عز وجل :

السنة الأولى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] .

السنة الثانية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

[الرعد : ١١]

السنة الثالثة : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾

[محمد : ٣٨]

وتفصيل هذه السنن فيما يلي .



السنة الأولى

إن نصر الله عز وجل لدينه وعباده المؤمنين آت لا محالة وإن التمكين للإسلام في الأرض سيتم بعز عزيز أو بذل ذليل ، هذا وعد الله سبحانه والله لا يخلف الميعاد ، يقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١] .

ويقول تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥] .

ويقول سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

[المجادلة: ٢١]

وقال عز من قائل : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة ، كما أن الوعد بنصرة دين الله عز وجل جاء على لسان رسوله ﷺ حيث قال : « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربها ، وإن أمتي سيلغ ملكها ما زوي لي منها »^(١) ، وقال ﷺ : « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا

(١) رواه مسلم في الفتن وأشراف الساعة (٢٨٨٩) .

أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يُذل به الكفر»^(١) ، وقال ﷺ : « تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت»^(٢) .

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى - عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١] .

«أي : قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبذل بأن النصر له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة ﴿ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١ ، ٥٢] . وقال هاهنا : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي : كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة» اهـ^(٣) .

(١) رواه أحمد (١٠٣/٤) ، وهو في السلسلة الصحيحة (٣) .

(٢) رواه أحمد (٢٧٣/٤) ، وهو في السلسلة الصحيحة (٥) .

(٣) تفسير ابن كثير ، سورة المجادلة ، الآية : ٢١ .

ويقول رحمه الله تعالى عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا
وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ الآية :

«قد أورد أبو جعفر ابن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّا
لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ سؤالاً ، فقال : قد علم أن بعض
الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه كيحى وزكريا وشعيا ، ومنهم
من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم ، وإما إلى السماء كعيسى .
فأين النصرة في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين :

أحدهما : أن يكون الخبر خرج عاماً والمراد به البعض فإن هذا سائغ في
اللغة .

والثاني : أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم وسواء كان
ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم ، كما فعل بقتلة يحى وزكريا
وشعيا سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم .

وقد ذكر أن النمرود أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا
صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلط عليهم الروم فأهانوهم وأذلّوهم
وأظهرهم الله تعالى عليهم ، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه
الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحاكماً مقسطاً فيقتل المسيح الدجال وجنوده
من اليهود ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا
الإسلام ، وهذه نصرة عظيمة .

وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه ، أنه ينصر عباده

المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تبارك وتعالى : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب »^(١) ، وفي الحديث الآخر : « إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب » ، ولهذا أهلك الله عز وجل قوم نوح ، وعاداً ، وثمود ، وأصحاب الرس ، وقوم لوط ، وأهل مدين ، وأشباهم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق ، وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين فلم يهلك منهم أحداً ، وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحداً ، قال السدي : لم يبعث الله عز وجل رسولا قط إلى قوم فيقتلونه ، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق يُقتلون ، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم ويطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا . قال : فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها .

وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه ؛ فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، وأمره بالهجرة من بين ظهرائي قومه إلى المدينة النبوية ، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً ، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم ، وخذلهم ، وقتل صناديدهم ، وأسر سراتهم ، فاستاقهم مقرنين في الأصفاد ، ثم منَّ عليهم بأخذه الفداء منهم ، ثم بعد مدة قريبة فتح عليهم مكة ، فقرت عينه ببلده ، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم ، فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك ، وفتح به اليمن ، ودانت له جزيرة العرب بكما لها ، ودخل

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) .

الناس في دين الله أفواجاً، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله عز وجل، ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا، وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا...﴾ الآية، أي: يوم القيامة يكون النصر أعظم وأكبر وأجل^(١) اهـ.

ويقول سيد قطب - رحمه الله تعالى - حول هذا المعنى: «إن وعد الله واقع وكلمة الله قائمة ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات ١٧١-١٧٣] هذه هي الحقيقة في كل دعوة لله يخلص فيها الجند ويتجرد لها الدعاة أنها غالبية منصوره مهما وضعت في سبيلها العوائق وقامت في طريقها العراقيل، ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار وقوى الدعاية والافتراء، وقوى الحرب والمقاومة، وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرسله والذي لا يخلف، ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه؛ الوعد بالنصر والغلبة والتمكين، هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية، سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دورتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء، ولكنها مرهونة بتقدير الله يحققها حين يشاء».

(١) تفسير ابن كثير، سورة غافر، الآية: ٥١.

إلى أن يقول رحمه الله تعالى : « المؤمن يتعامل مع وعد الله على أنه الحقيقة الواقعة فإذا كان الواقع الصغير في جيل محدود أو في رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة فهذا الواقع هو الباطل الزائل الذي يوجد فترة في الأرض لحكمة خاصة لعل منها استجاشة الإيمان وإهاجته لتحقيق وعد الله في وقته المرسوم ، وحيث ينظر الإنسان اليوم إلى الحرب الهائلة التي شنها أعداء الإيمان على أهل الإيمان في صورها المتنوعة من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد في عهود متطاولة بلغ في بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قتلوا وشردوا وعذبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية ، ثم بقي الإيمان في قلوب المؤمنين يحميهم من الانهيار ويحمي شعوبهم كلها من ضياع شخصيتها وذوبانها في الأم الهاجمة عليها ومن خضوعها للطغيان الغاشم إلا ريثما تنقض عليه وتحطمه ، حين ينظر الإنسان إلى هذا الواقع في المدى المتطاوّل يجد مصداق قول الله تعالى ، يجده في هذا الواقع دون الحاجة إلى الانتظار الطويل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿ [المجادلة : ٢٠ ، ٢١]

وعلى كل حال فلا يخالغ المؤمن شك في أن وعد الله هو الحقيقة الكائنة التي لا بد أن تظهر في الوجود .

إن وعد الله قاطع جازم ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [غافر : ٥١] بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يلقي في الأحدود ومنهم من يستشهد ومنهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد ، فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا ؟ ويدخل الشيطان في النفوس من

هذا المدخل ، ويفعل بها الأفاعيل ، ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير!!

إن الناس يعيشون فترة قصيرة من الزمان وحيز محدود من المكان ، وهي مقاييس بشرية صغيرة ، فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان ، ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك ، وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها ، فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها ، وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها «^(١) اهـ .

مما سبق يتبين لنا أهمية اليقين بوعد الله عز وجل في نصرته أوليائه ، وأنه آت لا محالة ، فإذا تأخر نصر الله عز وجل ، واشتد الكرب على المؤمنين بتسليط أعدائهم عليهم فإن هذا لا يعني عدم تحقق وعد الله وعدم مجيء نصره سبحانه ، ولكن لتأخره حكم وأسباب ، فبدلاً من اليأس من وعد الله عز وجل بالنصر يجب أن يتوجه البحث والتفكير عن أسباب تأخره التي يجب أن يتوجه الجهد لإزالتها ، وإيجاد المناخ والأسباب التي تهییء لنصر الله عز وجل .

وقد ذكر سيد قطب - رحمه الله تعالى - بعض الأمور التي قد يتأخر نصر الله عز وجل بسببها فقال :

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن، ص ٣٥٤ .

* «والنصر قد يبطل لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ، ولم يتم بعد تمامها ، ولم تحشد بعد طاقاتها ، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات ، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً . .

* وقد يبطل النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما تملكه من رصيد فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً ، لا تبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله . .

* وقد يبطل النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها ، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر . . إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله . .

* وقد يبطل النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة ، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر معها قرار ، فيظل الصراع قائماً حتى تنهيا النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستبقائه .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطل النصر ، فتتضاعف التضحيات وتتضاعف الآلام ، مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية ، وللنصر تكاليفه وأعباءه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه ، وأداء ثمنه ، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه . .

* وقد يبطل النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتتألم

وتبذل ، ولا تجد لها سنداً إلا الله ولا متوجهاً إلا إليه وحده في الضراء . . وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله .. فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به . .

* وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته ، فهي تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها ، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله ، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلابسه .

وقد سئل رسول الله ﷺ : الرجل يقاتل حمية ، والرجل يقاتل شجاعة ، والرجل يقاتل ليرى ، فأيهما في سبيل الله ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ^(١) .

* كما قد يبطئ النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصاً ، ويذهب وحده هالكاً ، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار . .

* وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً ، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضروره زواله ، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة ، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى

(١) متفق عليه .

يتكشف عارياً للناس ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية»^(٢) اهـ .



(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن ، ص ٣٥٩ .

تنبيه : حول وجوب تعرية الباطل نقول : نعم لن تقوم لنا قائمة ويسود ديننا - الذي اصطفاه الله لنا - قبل تعرية الباطل والكشف عن وجهه الخبيث ، فكم من أناس من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا أجسادهم أجساد إنس وقلوبهم قلوب شياطين ، دعاة على أبواب جهنم من قبل دعوتهم قذفوه فيها . وقد كان دور هؤلاء الشياطين : ضرب الدين بالدين وتزييف الحقائق وقلب الموازين ، فهم يُحسِّنون كل قبيح ، ويُقَبِّحون كل حسن . كل هذا عن طريق لي أعناق النصوص تارة ، وعن طريق التحريف لها تارة ، وعن طريق التحلل التام من قيودها تارة أخرى . ومن صور قلبهم للحقائق : أن أخرجوا الوثنية في ثوب التوحيد ، والبدعة في لباس السنة ، وموالة اليهود والنصارى تحت شعار التعايش السلمي ، والإخاء ووحدانية الأديان ، وكذلك المعاصي والفجور تحت ستار الرقي والتقدم ، والقضاء على حاكمية القرآن لإنهاء التخلف والجمود والرجعية ، وإحلال رايات وثنية - مثل القومية العربية والوطنية والعلمانية - محل راية التوحيد ، وكذا التولي والخذلان والمهانة مكان الجهاد والنصرة والعزة . . . هؤلاء الشياطين وأعاونهم يجب فضحهم ، وكشف خبث طويتهم وحقدهم اللثيم على الإسلام والمسلمين ، حتى تكفر بهم الأمة ، وتبرأ إلى الله منهم ، وتعلم الشعوب كم كانت ضحية لهؤلاء الشياطين يتاجرون بهم لتحقيق مآربهم وحظوظ نفوسهم ، وليعلم الدعاة إلى الله أن فضح وتعرية هؤلاء من أعز مقاصد التشريع امتثالاً لقول مولانا : ﴿ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ، وتحقيقاً لقول الله عز وجل : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ .

السنة الثانية

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]

إن كثيراً من الدعاة والمصلحين ليعلمون هذه السنة العظيمة القدر ، لكن الواقع العملي يغفل في كثير من الأحيان عن هذه السنة ، والتي هي مفتاح النصر والتمكين وهي المدخل لتغيير واقعنا ، حيث قضى الله عز وجل أنه لا يغير أحوال قوم أو أمة حتى يبدأوا هم فيغيروا ما بأنفسهم ويصلحوا أحوالهم ، فيغير الله ما بهم ويأخذ بأيديهم ويعينهم .

وهذا يعني أنه متى تأخر نصر الله عز وجل مع الحاجة الماسة إليه فإن هناك أسباباً في تأخره ولا شك ، ومن أهم هذه الأسباب أن الذين يبحثون عن نصر الله تعالى لم يغيروا ما بأنفسهم بعد .

وحينئذ يجب أن تتوجه الجهود إلى العمل الجاد في التغيير الذي يبدأ من داخل النفس ومن داخل الصف المسلم حتى يغير الله عز وجل ما بنا وتتهياً الأسباب الجالبة لنصر الله تعالى .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله عز وجل :
 ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾
 [الأنفال: ٥٣] : يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ

مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿١﴾ اهـ .

وهذه السنة الربانية ذات دلالتين في حالنا وواقعنا المعاصر :

أولاهما : أن التباين الشديد والهوة السحيقة بين الحياة الذليلة المهينة والضعف والانحسار وفقدان الثقة الذاتية مع تلقي المناهج والقيم والشرائع الغربية لتحقيق الذات واستمداد العزة ، وكذلك الهزيمة النفسية التي حلت في جذر قلب الأمة اليوم ، إن الفرق بين حياتنا هذه وبين الحياة العزيزة المهيمنة المستعلية القوية المتملكة لزمام العالم أجمع ، تلك الحياة التي كانت تُتبع ولا تُتبع وتقود ولا تقاد كانت أبرز سمات عصر سلفنا الصالح ، إن كل هذا التباين الشديد بيننا وبين سلف الأمة خير شاهد ودليل على أننا غيرنا ما بأنفسنا فغير الله حالنا .

ثانيهما : أن حالنا اليوم لن يغيره الله حتى نغير ما بأنفسنا من كثرة البدع والشرك بشتى صوره - الجلية والخفية ، الظاهرة والباطنة - ، وكذلك التبعية الغربية النابعة من انحسار الإيمان وعدم الاستعلاء به في النفوس مع فقدان الثقة في نبع عزنا ، وأيضاً محو آثار المعاصي والفجور التي لبست ثوب المباح والتقدم والرقي ، وخلعت لباس التقوى والعزة والكرامة . . مع الفرار مما سبق كله إلى أفراد الله - جل ثناؤه - بالحب والخوف والإنابة والتلقي والتوجه مع تجريد الولاء لله ولدينه ولرسوله ﷺ وللمؤمنين ، والشعور باستعلاء الإيمان في النفوس والثقة بهيمنة كتابنا وحاكميته المطلقة لكافة شؤون الحياة وأنه نبع العز والتمكين ، وأن تكون تلك هي الراية المعلنة

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، سورة الأنفال ٥٣ .

الخالصة من آية إضافة أو شائبة ، فعند هذا يُغيّر الله حالنا .

يقول صاحب الظلال ، رحمه الله تعالى :

« إن الله تبارك وتعالى يحرض المؤمنين على التجرد له والاتجاه إلى نصرته نهجه في الحياة ، ويعدّهم على هذا النصر والتثبيت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : ٧ ، ٨] وكيف ينصر المؤمنون الله ؛ حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت ؟ إن الله في نفوسهم أن تتجرد له ، وألا تشرك به شيئاً ، شركاً ظاهراً أو خفياً ، وألا تستبقي فيها معه أحداً ولا شيئاً وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى ، وأن تُحكّمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها وسرها وعلاقتها ونشاطها كله وخلجاتها ، فهذا نصر الله في ذوات النفوس .

وإن لله شريعة ومنهاجاً للحياة تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة ، ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء فهذا نصر الله في واقع الحياة . .

وإنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين وتمثلت في واقع حياتهم منهجاً للحياة ونظاماً للحكم وتجرداً لله في كل خاطرة وحركة وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة ، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً . وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامي كله واقعة واحدة تخالفها . . ونحن نقرر في ثقة بوعده الله لا يخالفها شك أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين ، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله ، إلا وهناك ثغرة في حقيقة

الإيمان - إما في الشعور وإما في العمل - ومن الإيمان أخذ العدة وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله ، وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة - وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ثم يعود النصر للمؤمنين - حين يوجدون . .

ففي أحد مثلاً كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول ﷺ وفي الطمع في الغنيمة ، وفي حُنين كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها ونسيان السند الأصيل ، ولو ذهبنا نتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئاً من هذا . . نعرفه أو لا نعرفه . . أما وعد الله فهو حق في كل حين . . نعم إن المحنة قد تكون للابتلاء . . ولكن الابتلاء إنما يجيء لحكمة هي استكمال حقيقة الإيمان ومقتضياته من الأعمال . فمتى اكتملت تلك الحقيقة بالابتلاء والنجاح فيه جاء النصر وتحقق وعد الله عن يقين . .

ويجب أن نفهم أن الهزيمة هي هزيمة الروح وكلال العزيمة . . فالهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها في النفوس هموداً وكلالاً وقنوطاً ، فأما إذا بعثت الهمة وأذكت الشعلة وبصرت بالمزالق وكشفت عن طبيعة العقيدة وطبيعة المعركة وطبيعة الطريق . . فهي المقدمة الأكيدة للنصر الأكيد والله سبحانه يقول : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٤١] وإنما يشير سبحانه إلى أن الروح المؤمنة هي التي تنتصر والفكرة المؤمنة هي التي تسود . وإنما يدعو سبحانه الجماعة المسلمة إلى استكمال حقيقة الإيمان في قلوبها تصوراً وشعوراً ، وفي حياتها واقعاً وعملاً . . وألا يكون اعتمادها كله على عنوانها . فالنصر ليس للعناوين وإنما

هو للحقيقة التي وراءها . . وليس بيننا وبين النصر في أي زمان وفي أي مكان إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك .

ومن حقيقة الإيمان أن نأخذ العدة ونستكمل القوة . ومن حقيقة الإيمان ألا نركن إلى الأعداء وألا نطلب العزة إلا من الله ، ووعد الله هذا الأكيد يتفق تماماً مع حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر في هذا الكون ، إن الإيمان صلة بالقوة الكبرى التي لا تضعف ولا تفنى ، وإن الكفر انقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها ، ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة في هذا الكون ، غير أنه يجب أن نفرق دائماً بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان . .

إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونية ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل . وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيفة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة أن تقهرها . ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر فإن حقيقة الكفر تغلبه إذا هي صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها ؛ لأن حقيقة أي شيء أقوى من مظهر أي شيء ، ولو كانت هي حقيقة الكفر وكان هو مظهر الإيمان ، إن قاعدة المعركة لقهر الباطل هي إنشاء الحق وحين يوجد الحق بكل حقيقته وبكل قوته يتقرر مصير المعركة بينه وبين الباطل مهما يكن هذا الباطل من الضخامة الظاهرية الخادعة للعيون ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول ، فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير ، وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد

أن يستعلوا بالحق في الباطن . .

إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية ، فإذا ظل الإيمان : مظهراً لم يتجسم في القلب ، والحق : شعاراً لا ينبع من الضمير ، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان ؛ لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان ، يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب ، فتصبحان أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ، ويصول بها الطغيان «^(١) اهـ .

ونختم الحديث حول هذه السنة بكلام بديع لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى ، ننقله بطوله لعظيم فائدته - حيث يقول رحمه الله تعالى :

«ولكن تذكر هنا نكتة نافعة ، وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من مصائب ، وما يصيب كثيراً من الكفار والفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك ، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور ، وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما يتنعمون به إلا قليلاً ، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين ، وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأن العاقبة للمتقوى ، وقول الله تعالى : ﴿وَأَنَّ جُنُودَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات : ١٧٣] - وهو ممن يصدق بالقرآن - حمل هذه الآيات على الدار الآخرة فقط ، وقال : أما في الدنيا فما نرى بأعيننا إلا أن الكفار

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن ، ص ٢٤٨ .

والمنافقين فيها يظهرن ويغلبون المؤمنين ، ولهم العزة والنصرة ، والقرآن لا يرد بخلاف المحسوس ، ويعتمد على هذا فيما إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين ، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى ، فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق ، فيقول : أنا على الحق وأنا مغلوب ، وإذا ذكره إنسان بما وعده الله من حسن العاقبة للمتقين ، قال : هذا في الآخرة فقط .

وإذا قيل له : كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور ؟ قال : يفعل ما يشاء ، وربما قال بقلبه أو لسانه ، أو كان حاله يقتضي أن هذا من نوع الظلم ، وربما ذكر قول بعضهم : ما على الخلق أضر من الخالق ، لكن يقول : يفعل الله ما يشاء . وإذا دُكر برحمة الله وحكمته لم يقل إلا أنه يفعل ما يشاء ، فلا يعتقدون أن صاحب الحق والتقوى منصور ومؤيد ، بل يعتقدون أن الله يفعل ما يشاء .

وهذه الأقوال مبنية على مقدمتين :

إحداهما : حسن ظنه بدين نفسه نوعاً أو شخصاً ، واعتقاد أنه قائم بما يجب عليه ، وتارك ما نُهي عنه في الدين الحق ، واعتقاده في خصمه ونظيره خلاف ذلك : أن دينه باطل نوعاً أو شخصاً ، لأنه ترك المأمور وفعل المحظور .

والمقدمة الثانية : أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره . وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا ، فلا ينبغي الاعتراض بهذا .

والمقدمتان اللتان بنيت عليهما هذه البلية مبناهما على الجهل بأمر الله

ونهيهِ ، وبوعده ووعيده . فإن صاحبهما إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق ، فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور ، وتارك للمحذور ، وهو على عكس ذلك ، وهذا يكون من جهله بالدين الحق .

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا ، بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار على المؤمنين ، ولأهل الفجور على أهل البر ، فهذا من جهله بوعده الله تعالى .

أما الأول : فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها ، وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها ، بل ما أكثر من يعبد الله بما حرم ويترك ما أوجب ، وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه ، وأن خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه ، ولا يكون الأمر كذلك ، بل يكون معه نوع من الباطل والظلم ، ومع خصمه نوع من الحق والعدل .

وحبك الشيء يعمي ويصم ، والإنسان مجبول على محبة نفسه ، فهو لا يرى إلا محاسنها ، ومبغض لخصمه ، فلا يرى إلا مساوئه ، وهذا الجهل غالبه مقرون بالهوى والظلم ، فإن الإنسان ظلوم جهول .

وأكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم ، وتقليدهم في التصديق والتكذيب ، والحب والبغض ، والموالة والمعاداة .

كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [لقمان : ٢١] . وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ [٦٦] وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب : ٦٦ ، ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيَا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [الشورى : ١٤].

وأما الثاني : فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء معذبين بما فيه ، بخلاف من فارقههم إلى طاعة أخرى أو سبيل آخر ، ويكذب بوعدهم الله بنصرهم .

والله سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين فقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١].

وقال تعالى في كتابه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصفات : ١٧١ - ١٧٣].

وقال تعالى في كتابه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كَبَّتِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [المجادلة : ٥].

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢٠ ، ٢١].

وقال تعالى في كتابه : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥٥ ، ٥٦].

وقال تعالى في كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقد روي عن أبي ذر، عن النبي ﷺ أنه قال: «لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم» رواه ابن ماجه وغيره^(١).

وأخبر أن ما يحصل لهم من مصيبة انتصار العدو وغيرها ، إنما هو بذنوبهم ، فقال تعالى في يوم أحد : ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وقال تعالى : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وقال تعالى : ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الروم: ٣٦].

وقال تعالى : ﴿أَوْ يُوبِقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [الشورى: ٣٤].

وذم في كتابه من لا يثق بوعده لعباده المؤمنين ، وذكر ما يصيب الرسل والمؤمنين ، فقال تعالى : ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٢٠)، ورواه أيضاً الإمام أحمد (١٧٨/٥) بلفظ : « لو أن الناس كلهم أخذوا بهذه الآية لكفتهم » ، وقال الألباني في مشكاة المصابيح : إنه ضعيف .

الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّهَا وَمَا تَلَبَّوْا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿ [الأحزاب: ١٠ - ١٤].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأَةٍ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩ - ١١١].

ولهذا أمر الله رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم، وهو طاعته، وهو المقدمة الأولى. وأمرهم بانتظار وعده، وهي المقدمة الثانية. وأمرهم بالاستغفار والصبر، لأنهم لابد أن يحصل لهم تقصير وذنوب فيزيله الاستغفار، ولابد مع انتظار الوعد من الصبر، فبالاستغفار تتم الطاعة، وبالصبر يتم اليقين بالوعد، وإن كان هذا كله يدخل في مسمى الطاعة والإيمان.

قال تعالى : ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس : ١٠٩] .

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْذُوا حَتَّىٰ أَنَا هُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَاِ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

[الأنعام : ٣٤]

وقال تعالى : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود : ٤٩] .

وأمرهم أيضاً بالصبر إذا أصابتهم مصيبة بذنوبهم ، مثل ظهور العدو ، وكما قال تعالى في قصة أحد : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٩ - ١٤١] .

وأيضاً فقد قص سبحانه في كتابه نصره لرسله ولعباده المؤمنين على الكفار في قصة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وفرعون وغير ذلك . وقال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف : ١١١] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النور : ٣٤] .

وهذا يتبين بأصلين :

أحدهما : أن حصول النصر وغيره من أنواع النعيم لطائفة أو شخص لا ينافي ما يقع في خلال ذلك من قتل بعضهم وجرحه ومن أنواع الأذى ، وذلك أن الخلق كلهم يموتون ، فليس في قتل الشهداء مصيبة زائدة على ما

هو معتاد لبني آدم ، فمن عد القتل في سبيل الله مصيبة مختصة بالجهاد كان من أجهل الناس ، بل إن الفتن التي تكون بين الكفار وتكون بين المختلفين من أهل القبلة ليس مما يختص بالقتال ، فإن الموت يعرض لبني آدم بأسباب عامة ، وهي المصائب التي تعرض لبني آدم من مرض بطاعون وغيره ، ومن جوع وغيره . وبأسباب خاصة ، فالذين يعتادون القتال لا يصيبهم أكثر مما يصيب من لا يقاتل ، بل الأمر بالعكس ، قد جرّبه الناس .

ثم موت الشهيد من أيسر المיתات ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿ [الأحزاب : ١٦ ، ١٧] .

فأخبر سبحانه أن الفرار من القتل أو الموت لا ينفع ، فلا فائدة فيه ، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلاً ، إذ لا بد من الموت .

وأخبر أن العبد لا يعصمه من الله أحد إن أراد به سوءاً أو أراد به رحمة وليس من دون الله ولي ولا نصير ، فأين نفر من أمره وحكمه ؟ ولا ملجأ منه إلا إليه ، قال تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات : ٥٠] وهذا أمر يعرفه الناس من أهل طاعة الله وأهل معصيته ، كما قال أبو حازم الحكيم : « لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقاه الذي يتقي الله من معالجة التقوى » .

والله تعالى قد جعل أكمل المؤمنين إيماناً أعظمهم بلاء ، كما قيل للنبي ﷺ : أي الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خُفف عنه ، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي

على الأرض وليس معه خطيئة»^(١) .

فالجهد للكفار أصلح من هلاكهم بعذاب سماء من وجوه :

أحدها : أن ذلك أعظم في ثواب المؤمنين وأجرهم وعلو درجاتهم ، لما يفعلونه من الجهاد في سبيل الله ، لأن تكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله .

الثاني : أن ذلك أنفع للكفار أيضاً ، فإنهم يؤمنون من الخوف ، ومن أسر منهم وسيم من الصغار يسلم أيضاً ، وهذا من معنى قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

قال أبو هريرة : «وكنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة» ، فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وأفلح بذلك المقاتلون ، وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا من معنى كون محمد ﷺ ما أرسل إلا رحمة للعالمين ، فهو رحمة في حق كل أحد بحسبه حتى المكذبين له ، هو في حقهم رحمة أعظم مما كان غيره .

ولهذا لما أرسل الله إليه ملك الجبال وعرض عليه أن يقلب عليهم الأخشبين قال : « لا ، استأن لهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له » .

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٤٠٠) ، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣) وهو في السلسلة الصحيحة (١٤٣) .

(٢) رواه البخاري بنحوه في بدء الخلق (٣٢٣١) ، ومسلم في الجهاد (١٧٩٥) .

الوجه الثالث : أن ذلك أعظم عزة للإيمان وأهله ، وأكثر لهم ، فهو يوجب من علو الإيمان وكثرة أهله ما لا يحصل بدون ذلك ، وأمر المنافقين الفجار بالمعروف ونهيهم عن المنكر هو من تمام الجهاد وكذلك إقامة الحدود .

ومعلوم أن في الجهاد وإقامة الحدود من إتلاف النفوس والأطراف والأموال ما فيه ، فلو بلغت هذه النفوس النصر بالدعاء ونحوه من غير جهاد ، لكان ذلك من جنس نصر الله للأنبياء المتقدمين من أمهم لما أهلك نفوسهم وأموالهم .

وأما النصر بالجهاد وإقامة الحدود فذلك من جنس نصر الله لما يختص به رسوله ، وإن كان محمد ﷺ وأمتة منصورين بالنوعين جميعاً ، لكن يشرع في الجهاد باليد ما لا يشرع في الدعاء^(١) اهـ .



(١) جامع الرسائل ، ج٢ الرسالة الثالثة (قاعدة في المحبة) ، ص ٣٢٤-٣٣٩ .

● السنة الثالثة ●

بالجمع بين السنة الأولى والثانية تظهر معالم هذه السنة ، وذلك لو أن الناس لم يغيروا ما بأنفسهم ، فهل معنى هذا أن نصر الله عز وجل لن يأتي ؟

والجواب : كلا ، فلا بد من أن يأتي نصر الله عز وجل ، كما تقرر ذلك في السنة الأولى ولكن يقف في سبيل ذلك عدم الأخذ بالسنة الثانية في التغيير . وفي هذه الحالة تأتي سنة الله عز وجل الثالثة والمتضمنة تبديل من رفضوا تغيير ما بأنفسهم وواقعهم بجيل يحبهم الله عز وجل ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله لا يخافون في الله لومة لائم . فيحققون بذلك أسباب النصر ، فينزل الله عز وجل عليهم نصره ويشرفهم به .

وهذا كثير في كتاب الله عز وجل حيث يقول سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨] ، ويقول تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ... ﴾ [التوبة: ٣٩] ، ويقول جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤] .

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية : «يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصره دينه وإقامة شريعته ، فإن الله يستبدل من هو خير لها منه وأشد منعة وأقوم سبيلاً»^(١) .

* * *

محصلة السنن الثلاث :

إن نصر الله عز وجل آت لا محالة ، ولكن له أسباب وسنن ، وهو يبدأ من تغيير الناس ما بأنفسهم أولاً حتى يغير الله عز وجل ما بأرضهم ويمكن لهم دينهم ، وإنهم إن لم يغيروا ما بأنفسهم فإن هذا لا يعني عدم مجيء نصر الله عز وجل ، وإنما يستبدل الله عز وجل قوماً آخرين يحققون أسباب النصر والتغيير ويشرفهم سبحانه بأن ينزل عليهم نصره المبين ، ويدفع بهم الفساد ، ويعذب الكافرين بأيديهم .

وبعد إيضاح هذه السنن وعلاقة بعضها ببعض يحسن بنا أن نذكر جملة من العوائق في طريق النصر حتى يتوقاها المسلمون ويكونوا منها على بينة وبصيرة .

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، سورة المائدة ، الآية : ٥٤ .

عوائق في طريق النصر

إن العوائق والتحديات التي تعترض سبيل الدعوة اليوم كثيرة جداً بعضها أخطر من بعض ، وقد أدت هذه العوائق ببعض النفوس إلى داء خطير إذا حل في النفوس حطمها وأذلها ، ألا وهو اليأس أو الهزيمة النفسية من الداخل ، وهذا الداء هو في حد ذاته من أكبر العوائق .

وقد حذر الله عز وجل من هذا الداء أن يتسرب إلى نفوس المؤمنين به سبحانه ؛ لأن بمجرد دخول الإيمان إلى القلوب فإنه ينفي الهوان والذلة والضعف عنها ، ويورثها القوة والعزة والكرامة مهما كانت الظروف التي تعيشها هذه القلوب المؤمنة من تشريد أو سجن أو تعذيب . فغاية ما يملكه المتسلطون هو الجسد فقط ، أما القلب المعمور بالإيمان ففيه قوة الإيمان التي تستعلي على كل ابتلاء وهزيمة واستضعاف .

والله سبحانه يقول للمؤمنين وقد أصابهم القرح في أحد : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] ، فلا يجتمع الوهن والاستكانة مع الإيمان الحقيقي أبداً .

وقال أيضاً في هذا المقام : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبُّهُ كَثِيرٌ فَلَمَّا هَمَّ بِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا

وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١﴾ [آل عمران: ١٤٦، ١٤٧] .

فتأمل وصفه تعالى للربيين عند حلول المصيبة بأنهم ما ضعفوا . . وما استكانوا . . وما وهنوا . . فكيف بعد هذا للهوان أو اليأس أن يتطرق إلى قلوب المؤمنين في أي ظرف من الظروف وهم يملكون الإيمان الذي يرفعهم على كل هزيمة وكيد ومكر ؟

وبعد هذه التوطئة التي لا بد منها نعود إلى ذكر أهم هذه العوائق التي تقف في طريق النصر والتي يمكن إجمالها في :

١- العوائق الخارجية .

٢- العوائق الداخلية .

أولاً- العوائق الخارجية :

ويقصد بها تلك العوائق والتحديات الواردة من خارج الصف الإسلامي وذلك من أعداء هذا الدين والمتمثلين فيما يلي :

(١) إن هذه الآية ترسم الموقف الشرعي حال الاستضعاف والهزيمة حيث يتمثل في أربعة معالم أساسية :

أ- الحذر من الهوان والذلة والاستكانة عند الهزيمة ؛ لأن المؤمن يركن إلى من بيده ملكوت كل شيء .

ب- مراجعة النفس لأنها في الغالب منها المصائب والهزائم وذلك من ذنوبها وإسرافها في أمرها ، وهذا هو الذي فعله الربيون عندما أصابهم القرح ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ... ﴾ الآية .

جـ - الصبر الجميل في مثل هذه الظروف ، ودعاء الله عز وجل ، وهذا ما مدحهم الله عز وجل به حيث قال في آخر الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ .

د- دعاء الله عز وجل بالثبات على الدين والانتصار على الكافرين .

- ١- الكفار الصرحاء الذين أسفروا عن عدائهم وحقدهم على الإسلام وأهله كاليهود والنصارى والوثنيين وغيرهم .
- ٢- المنافقون المظهرون للإسلام والمبطنون للكفر والزندقة ، وهؤلاء من بني جلدتنا ويتكلمون بألستنا كما هو الحال من العلمانيين والباطنيين الذين يكيّدون لهذا الدين ويوالون أعداءه من اليهود والنصارى .
- ٣- الأنظمة الحاكمة في أكثر بلدان المسلمين التي وجهت عداءها وكيدها على شعوبها المسلمة باسم مكافحة التطرف والإرهاب فأكثروا في الأرض الفساد ووقفوا في وجه كل حركة إصلاحية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

ثانياً- العوائق الداخلية :

- ويقصد بها العوائق التي توجد داخل الصف المسلم من الانحراف الموجود في الفهم أو القصد ، وهذه العوائق تتمثل فيما يلي :
- ١- عوائق داخل الصف الإسلامي للدعاة تتمثل في الفرقة المشينة والاختلاف والشحناء والبغضاء .
 - ٢- عوائق داخل نفوس أفراد الدعوة من أمراض وأدران وركون إلى الدنيا وتحاسد ورياء وكبر . . إلخ .
- وبمقارنة العوائق الواردة من الخارج بالعوائق الواردة من داخل الصف الإسلامي يظهر لنا خطورة العوائق الداخلية وأثرها في تأخر نصر الله عز وجل ، ولولم توجد العوائق الداخلية لما كان للعوائق الواردة من الخارج أن تؤثر بكيدها ومكرها في الصف الإسلامي والمجتمع المسلم .

قال تعالى : ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ .

[آل عمران : ١٢٠]

ففي هذه الآية الكريمة يعلمنا الله عز وجل أن كيد العدو الخارجي لا يضر المؤمنين شيئاً إذا اتصفوا بالصبر والتقوى ؛ لأن الله عز وجل محيط بعمل الكفار وتخطيطهم ، وهم في قبضته والعكس بالعكس ؛ فمتى ظهر كيد الكفار في الصف المسلم فإن هذا دليل على ضعف الصبر والتقوى ، ويؤكد هذا المعنى أيضاً قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١١] .

مما سبق يتبين لنا خطورة العوائق الداخلية وأن التغيير المنشود في الأرض يبدأ من التغيير في النفس وتفقدنا سواءً في سلامة الفهم والمعتقد أو في سلامة المقصد والنوايا ، وأن أي خلل في الفهم والقصد يظهر أثره في تسلط الأعداء وتأخر نصر الله عز وجل .

إنه بدلاً من أن نسقط أسباب ضعفنا ومهانتنا على عدونا الخارجي ؛ يجب علينا أن نرجع إلى أنفسنا ونتوجه إلى إصلاحها وإصلاح ذات بيننا حتى نكون أهلاً لنصر الله عز وجل وحتى يغير الله ما بنا .

إن إصلاح النفوس وإقامة حكم الله فيها عقيدة وعبادة وسلوكاً هو الطريق إلى إقامة حكم الله في الأرض . . وإلا فما قيمة المطالبة بإقامة حكم الله في الأرض واستعجال نصر الله تعالى ، ولما تستقم النفوس على منهج الله تعالى وتنقذ له ؟!

وما أحسن مقولة من قال : «أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم على أرضكم» .

إن المسلم العارف لسنن الله عز وجل في التغيير ليتألم من حالنا وواقعنا وما حل بيننا من فرقة وشحناء وأهواء ، ويتساءل بمرارة كيف يأتي نصر الله عز وجل في هذه الظروف والله عز وجل يقول : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] ؛ هذا على مستوى الدعاة والجماعات !!؟

أما إذا جئنا إلى نفوس الدعاة كأفراد فإن المراقب لواقعنا وأخلاقنا واهتماماتنا لا ينقضي عجبه وهو يرى ذلك التناقض بين ما يدعو إليه الداعية وبين سلوكياته وأخلاقه ، وبالتالي يتكرر نفس السؤال المطروح آنفاً ، كيف ينزل نصر الله عز وجل على أناس هذه أخلاقهم وتلك تضحياتهم وهذه مقاصدهم !!؟

يقول الدكتور محمد أمين المصري - رحمه الله تعالى - حول هذا الموضوع :

« إن الأعداء في الخارج يرقبون حركات المسلمين ويتربصون بهم الدوائر ويكيدون لهم كيداً ، ويمكرون بهم مكر الليل والنهار ، ومرجع هذا الصراع إلى عصور مترامية تمتد إلى الحين الذي دكت فيه عروش القياصرة والأكاسرة وامتد حكم الإسلام إلى أطراف العالم ؛ فهناك الحركة الصليبية ، وهناك الصهيونية والاستعمار الغربي والشرقي ، وهؤلاء جميعاً يختلفون فيما بينهم ولكنهم يصطلحون على حرب المسلمين ، ويجمعون أمرهم كيلا تقوم للمسلمين قائمة ولا تجتمع لهم كلمة . ويعتبر هذا الجانب خارجياً ، وهو -

وإن بلغ ذروة الكيد - ليس أكبر الجانبين أهمية بل هو - كما سنرى - نتيجة تابعة للعامل الثاني الذي هو الجانب الداخلي وهو المجتمع الذي يعيش فيه المسلمون ، وهنا نجد عقبات في الأفراد أنفسهم وفي تنشئتهم وتربيتهم .

وليس من شك في أن أكبر الأخطار التي تواجه المسلمين اليوم كامنة في النقص في تربية أفراد المسلمين أنفسهم ، والضعف الذي أصيب به شبابهم .

وأكبر المصائب أن يصاب الفرد بنفسه ؛ ذلك لأن معالجة أي خطر ممكنة ميسرة حينما تكون تربية الأفراد تربية قوية تستطيع أن تجابه المصاعب وتصمد للحوادث .

ومن عادة الضعيف أن يلقي بأسباب ضعفه على عوامل خارجية يدّعي أنه لا يملك التصرف فيها ليسوغ لنفسه ما هو فيه ، ولقد اعتدنا أن نفعل ذلك وأن نلقي تبعات ما نحن فيه من ضعف وتقصير على الاستعمار أولاً ، وعلى الماضي ثانياً ، وعلى مجتمعنا ثالثاً ، ولا يخطر ببال أحدنا أن يجعل نفسه مركز الاتهام بينما يجعل القرآن العامل الأساسي فيما يصيب الإنسان من مصيبة هو نفسه ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ أَصَابَكُمْ مَصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّنِي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

[آل عمران : ١٦٥]

يبين الله تعالى بشأن بني النضير حين غلبهم المسلمون أنهم أتوا من حيث لم يحتسبوا وكان ذلك من قبل أنفسهم . قال تعالى : ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا

أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿الحشر: ٢﴾ .

لم يؤت هؤلاء من نقص في ذخيرتهم أو عددهم أو حصونهم ، ولكنهم أتوا من قبل أنفسهم ، أيضاً قال رسول الله ﷺ : «ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت» ^(١) .

الحديث الكريم يخبر عن سنة عميقة من سنن الاجتماع تبين ما تنتهي إليه الجماعة حين تفسد فطرتها وتملأ الدنيا قلوب أفرادها ، ولقد كشف هذه الحقيقة الباحثون المحدثون لدراسة الجماعات وعوامل انحطاطها . قال أحد هؤلاء : إن الأسباب الحقيقية لكل انحطاط داخلية لا خارجية . وليس علينا أن نلوم العواصف حين تحطم شجرة نخرة في أصولها ، إنما اللوم على الشجرة النخرة نفسها .

والقرآن الكريم يهدي إلى هذه السنة ويبين للناس بأن ما يقع على الأمم من ظلم واضطهاد مرجعه إلى الناس أنفسهم وما كسبت أيديهم ، ولذا نجد التعبير بظلم النفس يتكرر في مواطن كثيرة في القرآن الكريم يقول تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل : ١١٨] .

والأمة التي تصاب بأبنائها هي التي تتعرض للمصائب والنكبات وتصبح عرضة لغزو العدو .

فهي إذن عوامل ثلاثة تعمل معاً : عدو خارجي متربص ، ومجتمع ، وأفراد . والمكانة التي تشغلها الأمة من محصلة هذه العوامل الثلاثة ، فقد

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم (٤٢٩٧) . وهو في صحيح سنن أبي داود (٣٦١٠) .

تكون بسبب ضعفها الداخلي مغزوة من الخارج ، وقد تكون بسبب قوتها الداخلية وتماسك مجتمعها غازية في الخارج .

وليست الحياة إلا صراعاً تقاوم فيه الصعوبات التي تتحدى الفرد والجماعة ثم تكون الغلبة والانتصار أو الاستسلام والهزيمة ؛ تلك سنة الله منذ بدء الخليقة ^(١) اهـ .



(١) من كتاب المسئولية - الدكتور / محمد أمين المصري ، ص ١٣ .

العالم الرئيسية لمنهج التغيير الصحيح

إن عدم الانتباه لسنن الله عز وجل السابق ذكرها في التغيير مع العوائق الشديدة التي تواجه الدعاة إلى الله عز وجل في طريقهم قد يؤدي ذلك كله ببعض الطيبين - وقد أدى - إلى اليأس والإحباط حتى ألقى بيديه ينتظر خارقة أو مهدياً^(١) ينصر الله به دينه، كما أدى ذلك ببعض الآخر إلى أن يظن أن الحل يكمن في التنازل للأعداء والرضا بالحللول الوسط؛ فدخل في تحالفات أو مجالس وبرلمانات ليحقق بذلك بعض المكاسب للدعوة أو يدفع بعض

(١) المهدي حقيقة ثابتة نؤمن بها حيث ورد ذكره في أحاديث كثيرة أوصلها بعض العلماء إلى حد التواتر، ولكن المؤمن بوعده الله عز وجل يوقن بانتصار هذا الدين ولا يربطه بخروج المهدي، وإنما يربطه بأسبابه الشرعية. صحيح أن الانتصار النهائي الشامل لن يكون - والله أعلم - إلا بعد خروجه، لكن المهدي حينها لن يخرج على الدنيا وحده، وإنما لا بد وأن فئة من المؤمنين قد تهيأت لمخرجه وأعدت نفسها بكل ما تعني كلمة الإعداد من معنى. أما الذين أهملوا أنفسهم وركنوا لدنياهم ولم يعدوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله عز وجل سواء مع المهدي أو مع أي مصلح آخر فسوف يكونون أبعد الناس عن اتباعه ولو ظهرت على يديه الخوارق المعجزات. إن الخوارق والمعجزات لم تنفع بني إسرائيل عندما طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه، مع أن الله عز وجل قد أيدته بمعجزة التابوت الذي فيه سكنة من ربههم وبقيّة مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، ومع ذلك فقد نكل أكثرهم، ولما عرضهم على النهر شربوا منه إلا قليلاً منهم، والقليل منهم لما برزوا لجالوت وجنوده: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، فالعبرة إذن ليست بخروج المهدي وظهور الخوارق وأن الناس سيتبعونه إذا رأوا ذلك منه... كلا لن يثبت ويواصل السير إلا من وفقه الله عز وجل وكان له حظ من التربية على الإيمان والصبر واليقين.

المفاسد عنها .

وفي المقابل نشأ فريق آخر يرى المواجهة واستعجال النصر ولكن قبل أوانه . كل ذلك - والله أعلم - نشأ من الضغوط الشديدة من العوائق الخارجية والداخلية وإغفال سنن الله عز وجل في التغيير .

وإن الحل لواقعنا المرير هو المنهج الصحيح في التغيير والذي يكمن في منهج الرسول ﷺ وبالذات في بدء الدعوة واستضعافها . وباستقراء معالم هذا المنهج الكريم يتبين أن أهمها ما يلي :

١- الانطلاق في الدعوة إلى الله عز وجل من أصلين عظيمين أمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن ينطلق بهما ، وهذان الأصلان مذكوران في سورة مكية حيث يقول الله عز وجل : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

فقد حددت هذه الآية الكريمة صفات الدعوة الصالحة المقبولة عند الله عز وجل وأنها هي التي تركز على هذين الأصلين العظيمين وهما :

الأصل الأول : ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ : والمراد من ذلك الدعوة إلى التوحيد بادئ ذي بدء^(١) والموالة والمعادة على أساسه ، والإخلاص والصدق في

(١) أورد الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هذه الآية في كتاب التوحيد باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله ليدل على أهمية التوحيد وأنه أول ما يدعى الناس إليه ، كما أنه استدلل بهذه الآية أيضاً على وجوب التجرد لله سبحانه وتعالى في الدعوة إليه ، وأن تكون الدعوة خالصة له وحده ، فذكر رحمه الله تعالى في مسائل الباب حول هذه الآية قوله : التنبيه على الإخلاص ؛ لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه .

الدعوة، وأن المراد منها وجه الله عز وجل، وإخلاص العبادة له وتوحيده، وأنه لا يدعو إلى شيء إلا إلى الله عز وجل؛ لا إلى شخص، أو حزب، أو راية أو أي غرض من أغراض الدنيا، والمراد من هذا الأصل سلامة القصد.

الأصل الثاني: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾: أي أن تكون الدعوة على بصيرة وعلم ودليل واتباع للرسول ﷺ، والمراد من هذا الأصل سلامة الفهم.

فإذا انطلقت الدعوة إلى الله عز وجل من قصد سليم وفهم سديد فهذه هي الدعوة الموفقة الموافقة لمنهج النبي ﷺ.

إذن فعلينا معاشر الدعاة إلى الله عز وجل أن نعيد النظر في مقاصدنا وفهومنا، إذ إن نصر الله عز وجل لا ينزل إلا على قوم قد صحت مقاصدهم فأخلصوا لله دعوتهم وعبوديتهم، وصحت فهومهم بالسير على ما كان عليه الرسول ﷺ وصحبه الكرام عقيدة وعبادة وسلوكاً، أما إذا تأخر نصر الله تعالى فهذا دليل على خلل في القصد أو خلل في الفهم وعندئذ يجب تلافي هذا الخلل والانسجام مع سنن الله عز وجل في التغيير ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

٢- إيمان بالله عز وجل وبوعده الذي لا يتخلف وأن نصره تعالى لعباده المؤمنين آت لا محالة، وأن نوقن بذلك كما نرى الشمس في رابعة النهار. وهذا ما كان يربي النبي ﷺ عليه أصحابه وهم في حالة استضعاف وإيذاء، ومن ذلك قوله ﷺ لخباب بن الأرت عندما جاءه يشكو إليه أذى المشركين ويطلب نصر الله تعالى: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه.

والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »^(١) .

٣- السعي إلى توحيد صفوف أهل السنة ورأب الصدع وتأليف القلوب وتحقيق معنى قوله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »^(٢) .

وكذلك قوله ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً - وشبك بين أصابعه »^(٣) ، فهل هذه المعاني العظيمة متحققة الآن بين الدعاة المؤمنين أم أن الحاصل هو الفرقة والاختلاف ؟!

إن الله عز وجل قد حذرنا من التنازع والتفرق وأخبرنا أن الفشل والهزيمة وتغلب الأعداء ثمرة حتمية للتنازع ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦] ، فكيف نرجو نصراً ونحن بهذه الحالة ؟!

إن الواجب على كل مؤمن صادق مخلص أن يسعى جاهداً للوحدة والاتلاف ويكره وينبذ الفرقة والاختلاف ، وإن لم يستطع جمع الكلمة فلا أقل من أن يكف شره ولا يفرق ، فمن استطاع أن يجمع فليفعل ، ومن لم يستطع فلا يفرق ، فهذا منه خير .

كما يجب على الدعاة المخلصين المتبعين للسنة أن يتعاونوا بينهم وأن

(١) صحيح البخاري - كتاب الإكراه (٦٩٤٣) .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

يتركوا التلاوم والنقد فيما يسعه الاختلاف، وأن يقدر كل منهم الآخر ويذكر له خيره وجهده، وأن يكمل بعضهم بعضاً، لا أن يضاد بعضهم بعضاً ويُسِفُّه بعضهم البعض الآخر، ويحتقر جهده، ويسيء الظن به، فهذا كله من الشيطان الذي لا يفتأ يسعى للتحريش والتفريق بين المؤمنين.

٤ - التربية الجادة للنفوس وإحياء السلوك الإسلامي وأخلاق السلف الفاضلة والقضاء على الرواسب والأخلاق الرديئة. وهذا يحتاج إلى صبر طويل وجهد كبير.

٥ - التركيز على الجانب العبادي وتكثيفه كما كان الرسول ﷺ يربي عليه أصحابه في مكة من صلاة الليل والذكر وغيره، والتربية على الزهد في الدنيا وإنشاء هم الآخرة وانتظار موعود الله عز وجل فيها.

٦ - توطين النفوس على الصبر على البلاء، والنفس الطويل وعدم العجلة في ذلك حتى يتم صقلها وتمحيصها، وأن تربي على أن يكون الانطلاق من الشريعة وقواعدها لا من ردود الفعل والعواطف الملتهبة، وهذا يحتاج إلى تربية طويلة وصبر جميل ودعوة هادئة مستمرة يتم فيها إبلاغ الناس بدين الله عز وجل ويتميز فيها الخبيث من الطيب كما هو الحال في العهد المكي الذي ظهرت فيه هذه المعاني بوضوح وجلاء؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

٧ - توسيع نطاق الدعوة إلى الله عز وجل والبلاغ العام لكافة الطبقات وإقامة الحجة وتعرية الباطل باللسان والبيان.

٨ - إعداد النفوس للجهاد في سبيل الله عز وجل والذي هو ذروة سنام

هذا الدين وهو ثمرة الفهم الصحيح والقصد الصحيح والصبر الطويل في التربية عليهما .

فلا بد من الاستعداد والإعداد له ، فنحن نوقن تمام اليقين أنه لا يرفع عن المسلمين ما هم فيه من ذلة ومهانة إلا أن تحيا معاني الجهاد في نفوسهم ، قال ﷺ : «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد في سبيل الله ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»^(١) .

فحياة المسلمين وعزهم وشرفهم في الجهاد في سبيل الله عز وجل ، فوق ذلك فإنه واجب شرعي لتبليغ دين الله عز وجل والقضاء على الفساد في الأرض وتعبيد الناس لربهم سبحانه ، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج : ٤٠] ، وقال سبحانه : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

وقد قال الرسول ﷺ : «من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق»^(٢) .

(١) رواه أبو داود ، في البيوع والإجازات (٣٤٦٢) ، وقال محقق «جامع الأصول» : هو صحيح .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمامة (١٩١٠) .

إن المتأمل في أحوالنا اليوم وطريقة تفكيرنا ومعيشتنا وتعاملاتنا ليرى عدم المصادقية الكافية عندنا في إعداد النفس للجهاد وتحديثها بالغزو على جميع المستويات إلا من رحم الله تعالى ، فمجرد نظرة سريعة إلى اهتماماتنا ، وما يشغل قلوبنا نرى أنها ليست اهتمامات مجاهدين . وكذلك أسلوب معيشتنا وما يشتمل عليه من الترف والترهل وحب الدعة والراحة والركون إلى الدنيا وكرهية الموت ، كل هذا لا يتفق مع حقيقة تحديث النفس بالغزو وإعدادها للجهاد .

إن « تحديث النفس بالغزو » الذي ينجي من شعب النفاق لا يكفي له أن يحدث الإنسان نفسه أنه سيعزو ويجهاد ويكتفي بهذا الحديث النفسي وهو متكئ على أريكته مشحون قلبه بدنياه ، كلا ليس هذا هو الحديث المنجي . إنما تحديث النفس بالغزو يعني أموراً عملية لا بد من العزيمة عليها من الآن أهمها ما يلي :

١- الإعداد العلمي والفقہ في الدين والبصيرة فيه حتى تكون دعوة الفرد ويكون جهاده على بصيرة وروية ووضوح راية ، ويفقه لماذا يجهاد ؟ وكيف يجهاد ؟ ومن يجهاد ؟ وعلى أي عقيدة يجهاد ؟ كل هذا لا يتأتى إلا بالعلم والفقہ في دين الله عز وجل .

٢- الإعداد التربوي والسلوكي ابتداء من تقوية الصلة بالله عز وجل ، وإخلاص النية له ، والتقرب له بالطاعات ، والزهد في الدنيا والتخفف منها ، والرغبة فيما عند الله عز وجل من الجنة والرضا ، والتخلق بأخلاق الإسلام ، وهذا كله يحتاج إلى جهد كبير وترويض شديد وصبر طويل .

٣- التعبئة النفسية وبث روح الجهاد ، وانتشال النفس مما هي فيه من

كسل ودعة واستخذاء ، والارتفاع بها من الهزيمة النفسية إلى الاعتزاز بهذا الدين ، والثقة بنصر الله عز وجل واليقين التام بأهمية الجهاد وما أعده الله عز وجل للمجاهدين .

٤ - التربية على الإنفاق في سبيل الله عز وجل ، والتضحية بالغالي والنفيس في سبيله عز وجل ، وتخليص النفس من الشح وحب الدنيا .

٥ - الشعور بواجب الدعوة إلى الله عز وجل وتجميع الناس حول الإسلام والاهتمام بأمر هذا الدين ، والغيرة على محارم الله عز وجل ، وأن هذا الأمر يتفاوت وجوبه والإثم المترتب على تركه حسب حال العبد ومرتبته من العلم أو القدرة أو الغنى . . إلخ . ويوضح ذلك الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في كتابه القيم إعلام الموقعين حيث يقول :

«ولله سبحانه على كل أحد عبودية بحسب مرتبته ، سوى العبودية العامة التي سوى بين عباده فيها ؛ فعلى العالم من عبودية نشر السنة والعلم الذي بعث الله به رسوله ما ليس على الجاهل ، وعليه من عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره ، وعلى الحاكم من عبودية إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه من هو عليه به والصبر على ذلك والجهاد عليه ما ليس على المفتي ، وعلى الغني من عبودية أداء الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير ، وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما .

وتكلم يحيى بن معاذ الرازي يوماً في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقالت له امرأة : هذا واجب قد وضع عنا ، فقال : هبي أنه قد وضع عنكن سلاح اليد واللسان ، فلم يوضع عنكن سلاح القلب ، فقالت :

صدق جزاك الله خيراً .

وقد غر إبليس أكثر الخلق بأن حسن لهم القيام بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع ، وعطلوا هذه العبوديات ، فلم يحدثوا قلوبهم بالقيام بها ، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من أقل الناس ديناً ، فإن الدين هو القيام لله بما أمر به ، فتارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالاً عند الله ورسوله من مرتكب المعاصي ، فإن ترك الأمر أعظم من ارتكاب النهي من أكثر من ثلاثين وجهاً ذكرها شيخنا رحمه الله في بعض تصانيفه ، ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ وبما كان عليه هو وأصحابه رأى أن أكثر من يشار إليهم بالدين هم أقل الناس ديناً ، والله المستعان .

وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تُنتهك ، وحدوده تُضاع ، ودينه يُترك ، وسنة رسوله ﷺ يُرغب عنها ؛ وهو بارد القلب ، ساكت اللسان ، شيطان أخرس ، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق ، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المتحزن المتلمظ ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل وجدَّ واجتهد ، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه .

وهؤلاء - مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم - قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون ، وهو موت القلوب ، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى ، وانتصاره للدين أكمل^(١) .

٦ - الإعداد الجسمي والعضلي لتحمل الجهاد ومشاق الطريق وذلك

(١) إعلام الموقعين (٢/١٧٦) .

بالرعاية الصحية والرياضة البدنية وركوب الخيل والسباحة والرماية وكل ما يحتاجه جهاد الكفار من إعداد وكل ما من شأنه إرهاب عدو الله وعدو المؤمنين قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال : ٦٠].

وكل هذه الأنواع من الإعداد قد قام بها الرسول ﷺ وهو في مكة حيث لم يؤذن له بعد بالقتال، وقد يقول قائل : ما الدليل على أنه ﷺ كان يدرّب أصحابه على الرماية والرياضة في مكة؟

والجواب : إنهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك فطبيعة نشاطهم وبيئتهم وحياتهم كانت في الأصل طبيعة قتالية مدربة جاهزة لا يحتاجون معها إلا إلى الأمر ومجيء الوقت المناسب للجهاد.

٧- وقبل ذلك وبعده (في الإعداد للجهاد) يجب أن ترتبط النفوس المؤمنة بطلب رضا الله عز وجل وجنته قبل أن يحصل لها أي هدف في هذه الدنيا الفانية ولو كان إقامة حكم الله عز وجل ؛ لأنه قد يتأخر إقامة علم الجهاد، وقد يبطل نصر الله عز وجل لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، وقد يموت المؤمن الذي أعد نفسه للغزو والجهاد ولم ير ثمرة الجهاد، لكن حسبته أنه أعد نفسه وحدثها بالغزو ونجا من النفاق وسار في مرضات الله عز وجل، وهذا في حقيقته انتصار كبير.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى :

« ولقد كان القرآن ينشئ قلوباً يعدها لحمل الأمانة، وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع - وهي تبذل كل

شيء وتحتمل كل شيء - إلى شيء في هذه الأرض . ولا تنتظر إلا الآخرة ، ولا ترجو إلا رضوان الله . قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال ، بلا جزاء في هذه الأرض قريب . ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين . . حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء إلا أن تعطي بلا مقابل ، وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للجزاء . . وموعداً كذلك للفصل بين الحق والباطل .

وعلم الله منها صدق نيّتها على ما بايعت وعاهدت ، أتاها النصر في الأرض وائتمنها عليه . لا لنفسها ، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة ، منذ كانت لم توعده بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه ، ولم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه ، وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه . فالنصر ليس بالعدد وليس بالعدة . وليس بالمال والزاد . إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العباد»^(١) .

وختاماً أسأل الله عز وجل أن يرفع علم الجهاد وأن يقر أعيننا بنصرة دينه والتمكين لأوليائه ، وأن يجعلنا من الذين ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] .

كما أسأله سبحانه أن يجمع كلمة دعائه الصادقين على الحق ، وأن يوحد صفوفهم ويؤلف بين قلوبهم ، وأن يعيدهم من نزغات الشيطان ، وأن يريهم

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن ، ص ٣٦١ .

الحق حقاً ويرزقهم اتباعه ، ويريهـم الباطل باطلاً ويرزقهم اجتنابه .
اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم
الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ؛ اهدنا لما
اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد
وآله وصحبه .

* * *

١٦٣	 الحقيقة الثانية
١٦٧	 دروس من أحداث الخليج
١٦٧	 الدرس الأول : التعرف على سنن الله عز وجل في التغيير
١٦٩	 الدرس الثاني : تمييز الخبيث من الطيب
١٧٠	 الدرس الثالث : أهمية التوحيد والتربية عليه
	 الدرس الرابع : صحة الفهم وحسن القصد ودورهما في
١٧٥	 درء الفتنة
١٧٩	 الخاتمة

الرسالة الخاصة

﴿مَتَى نَصَرُ اللَّهُ﴾

١٨٣	 متى نصر الله ؟
١٩٧	 من سنن الله عز وجل في النصر :
١٩٨	 السنة الأولى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾
	 السنة الثانية : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا
٢٠٨	 بِأَنفُسِهِمْ﴾
	 السنة الثالثة : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا
٢٢٣	 أَمْثَالَكُمْ﴾
٢٢٤	 محصلة السنن الثلاث
٢٢٥	 عوائق في طريق النصر
٢٢٦	 أولاً : العوائق الخارجية
٢٢٧	 ثانياً : العوائق الداخلية
٢٣٣	 المعالم الرئيسية لمنهج التغيير الصحيح